Tahar Ben Jelloun, **Le discours du chameau,**
(Maspero, Paris, 1974).

انه يؤرخ لحركة العالم ابداعيا . هذا ما يفعله بن جلون هنا مستغرقا في الحاضر المجلل بالفاجعة العربية ، باحثا في هذا السواد عن مفتاح يشرع له باب الافق .

في قصيدة واحدة تشبه المطولة الملحميـــة ، وكصور في شريط سينمائي تمتد حبال هذا الشعر امام قارىء عربي معني بكل حرف يقال له . وبعيدا عن جغرافيا الذات الانانية ، تنفتح اثلام القصيدة الجلونية مرتوية بماء الـذات ــ الجماعة التـي تتمثل هنا بالجمل العربي .. أعرق مطية لها منذ فجر الزمن ، وباعتبار هذا الجمل اول جسر عبر عليه العربي من نوم الصحراء الذي كانت تسـدر فيه الى الواحات والحواضر ، حيث يخرج الزمن من وحدانيته الى الشرك الابدي .

الاف من القوافل اعتلت ظهـر هذا المسافـر الدائم المحتفظ مع الماء في اعماقه باسرار الاعراب الرحل والامهم ؛ وهـا آن الاوان لينضح هـذا الجمل بذاكرة الصحراء ، وليعلن على الملأ انه الجندي المجهول والفارس المغامر والامام الواعظ وراء المحراب .

مازق الذاكرة العربية

انها « موعظة الجمل » هذا الملك المتوج على الذاكرة العربية تطفو على وجوده ، يقتلها فتبعث. وهي المازق المختمر . واذا كان فتجنشتاين يقول: « ان حدود لغتي هي حدود عالمي الخاص » فـان لسان حال بن جلون يقول : « ان حدود ذاكرتي هي حدود عالمي الخاص » . وبما ان الشاعـر يجهد للافلات من هذه الخصوصية ، فمن الطبيعي ان يجهد لتدمير الذاكرة .. هذه الذاكرة التـي يخصص لها الشاعر جزئين من مطولته ، يلقي بها سارية الكلام ويعود الى المرفأ بواسطتها ايضا .

أول البحر هو هذه « الذاكرة الاثمة » والافـق هو « الذاكرة المجربة » ومـا بينهما يعلو مـوج الكلام ويهبط ، وسدى ينجو من هذين الحدين : البدء والخاتمة . في احـدى وظائف الشعـر الاساسية هنا « تقيؤ الذاكرة عند الفجر » .

الشعر هنا لا يعاني ، لان الماضي سـد لا يمكن تقويضه ، بل ان المعضلة الكبرى في نظره هي منع زيت الذاكرة من تلويث بحر الحاضر حيث تبـدأ طلائع الثورة في الاينابع . وبعكس بروست الـذي امضى حياته بحثا عن الزمن الضائع لدرجة انـه تنسك في سبيل الذاكرة ــ الجنة ، فان بن جلون لا ينفك عن اطلاق ابشع الالقـاب عليها . انهـا الذاكـرة التعسة التي سوف نغطيها بالرمـاد « الذاكرة المجنونة » « الذاكرة الخاوية في جليد الصباح » . بل انه يذهب الى حد التهكم مـن اسرارها وجمالاتها ، فهي مجـرد « حجاب بـلا لغز » ..

الاغتراب في شعر بن جلون ايضا يكمن في ان الانسان العربي ينضح بالماضي ، وهو من اكـثر الاغتربات اشكالا ، علمـا بان الذاكرة هـي المرفوضة ، ولكنها الجذر المتمسك بارضه . ان اصرار بن جلون هنا على نفيها يسير بهذا الشعر على طريق معاكس للشعر الرومانسي المتمحـور حول الذات الطاغية وعقدها . ان خضرة الصحو هنا هي النافذة التي يطالـب بن جلون بفتحهـا ليكتب للانسـان التغيير ، باعتبار ان الذاكرة نوم مؤبد :

« الاطفال يطالبون بفقدان الذاكرة
هم لا يصدقونكم ابدا
هم ينامى العصر الذهبي
والشرخ في الذاكرة التعبة »

وكمنبه يقرع لايقاظ السادرين ، او لاحاطتهـم بالخطر المحيق بهم ، ترجع كلمة « ذاكرة » تكرارا في القصيدة . ان ثقل الاتهام يقع عليها من خـلال التكرار ، اذ ان بن جلون يعتبرها الفاعل الاول في الزمن الانساني . ومن موقع الاتهام هذا يحمل بن جلون على « الاجداد الذين شربوا العار في آنية من رماد ، وصادروا احلامنا » انهم هاجس الرعب يهدد الكيان العربي الذي ما يزال مخدرا بأم كلثوم « النهر الذي لا يستيقظ » « النيل المنتظم في حروف تنازع على جنس مريض » . بل ان تبجح الماضـي